# الكناشات مصدرا للتاريخ العسكري المغربي خلال القرن التاسع عشر (كناشات ابن الكعاب نموذجا)

محمد ياسر الهلالي
ذ . التاريخ الوسيط بكلية الآداب عين الشق الدار البيضاء.

إن أي بحث علمي في أي مجال من المجالات لا يتحقق إلا بتطوير مناهجه، وإحداث التراكم في أبحاثه. ولما كان البحث التاريخي يعتمد بالدرجة الأولى على المادة الوثائقية الكفيلة بكتابة التاريخ وإعادة كتابته، فإنه كلما تم اكتشاف شيء جديد في هذا الباب، لاسيما إذا كان من جنس غير متداول بكثرة بين الباحثين، كلما زاد أفق البحث اتساعا، وزادت الرؤية اتضاحا.

وعليه، فإن هذا البحث يسعى إلى التعريف بأحد طلائع المهندسين العسكريين المغاربة زمن السلطان الحسن الأول، وأقصد به محمد بن الكعاب، انطلاقا من كناشاته الثلاث التي لا تحمل صفحاتها ترقيما محددا، فهي لازالت خاما كما أعدها صاحبها، وكذا من خلال وثائق مخطوطة خاصة [1]، نسعى للكشف عليها، ونفض الغبار عنها. لاسيما أن ما أنجز من أبحاث ودراسات حول التاريخ العسكري المغربي خلال القرن 19، لم يول هذه الشخصية ما تستحقه من مكانة ضمن هذا التاريخ [2].

قبل الخوض في الحديث عن هذه الشخصية محل الترجمة، لا بأس من الإلمام، ولو بإيجاز، بمعنى الكناشة. جاء عند "دوزي" : « **كَنانِيش، كُنَّاشَة، كُنَّاش :**

---

[1]- أتوجه بشكر خاص جدا لحفيد المترجم له من ولده سيدي صالح، السيد الفاضل الحاج محمد بن صالح بن محمد ابن الكعاب الذي أمدني بكناشات جده وبكل ما لديه من وثائق أصلية، استطاع بجهده الخاص، وبما لديه من حس توثيقي وتاريخي، إنقاذها من الضياع، وهي التي شكلت العمود الفقري لهذه الترجمة. وللإشارة فقد سبق للحاج محمد بن الكعاب أن أفاد بما لديه من وثائق كلا من العلامة سيدي محمد بن عبد الهادي المنوني في كتابه : مظاهر يقظة المغرب الحديث، والحاج أحمد معنينو حين إعداده لترجمة مقتضبة عن محمد بن الكعاب الشركي، وكذا الأستاذ جمال حيمر الذي ناقش دبلوم الدراسات العليا بكية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس بتاريخ 24 يونيو 1988 م في موضوع : « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن ».

[2] ـ يدل على ذلك مثلا أن بهيجة سيمو لم تخصص سوى فقرات قصيرة جدا لابن الكعاب ص . 257-279 في كتابها: Les reformes militaires au Maroc de 1844 à 1912، الصادرة عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، عام 1995 م، كما أن ثريا برادة لم تشر إليه البتة في كتابها ـالجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، الصادر عن منشورات الكلية نفسها، سنة 1997 م..

**الكُنَّاشَةَ عند المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوايد »** [1]. **« ويسميها بعضهم الزمام والبطاقات. وهي أوراق كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط »** [2]. **« قد لا يتجاوز مداها في كثير من الحالات محيط حياة [صاحبها] الشخصية أو العائلية. وهذه الكناشات [لعبت] بالنسبة لأصحابها دور مفكرة أو كراس لتسجيل الاهتمامات الآنية والعارضة »** [3]. وقد **« توجد للفرد الواحد عدة كنانيش لسعة اطلاعه ووفرة مباحثه »** [4].

ويورد المنوني تعريفا أوسع حيث يعرف الكناشات بأنها : **« نوع خاص من المخطوطات، (...) يسجل فيها المعنيون مختارات ما يقرأون أو يسمعون، وأحيانا يضيفون لذلك إنتاجاتهم ومشاهداتهم، وما جرى مجرى ذلك (...)، تسجل بها المقيدات دون انتظام، وإنما تكتب شبه مذكرات، يدون فيها المعني بالأمر ما يهمه حسبما يتفق له، ولهذا لم تكن مبوبة في الغالب، وقليل منها يصدر بفهرس، للكشف عن الموضوعات (...) وفي أكثر الحالات كانت هذه المدونات تستمر بخط أو خطوط أصحابها. (...) وبالنسبة إلى موضوعاتها، فهي تعكس في الأكثر اتجاه صاحبها. (...) غالبية هذه المدونات لا تحمل اسم صاحبها أو أصحابها بطريقة واضحة، وإنما يستخرج ذلك عرضا من ثنايا المقيدات، أو بواسطة مقارنة الخط. ومن مزايا هذه الكناشات، أنها قد تنفرد بإفادات تاريخية منوعة، وربما تكون غير معروفة بالمرة، فتكشف هذه الإفادات عن معلومات جديدة في موضوع التراجم، أو أحداث مجهولة، يجلبها شاهد عيان، (...) وأحيانا يقع العثور على حقائق لم تكن إذاعتها ميسورة في حياة مكونها، هذا إلى أن العديد من هذه المقيدات، تستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها، كلا أو بعضا. (...) وهكذا تبدو الأهمية البالغة للكناشات المغربية كمصادر تاريخية دفينة، وتتضاعف هذه الأهمية بالنسبة لمن تقل لديهم المدونات التاريخية المنتظمة، وهو واقعنا كمغاربة »** [5]. وانطلاقا من هذه التعاريف سنحاول معرفة مدى

---

-1 DOZY R., Supplément au dictionnaires Arabes, Tome 2, Librairie du Liban, Bayrouth, 1968.
Reproduction de l'édition originale de 1881, Leyde, E. J. Brill, 1881, p. 502.

2 - عبد العزيز بنعبد الله، « الفهرسة والكناشة في نشاط المغرب الفكري »، التاريخ العربي، العدد السابع، صيف 1419 هـ/ 1998 م، ص، 134.

3 - محمد المنصور، « مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع القرن التاسع عشر : كناشة المشاط »، ضمن متنوعات محمد حجي، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، ص، 46.

4 - محمد رزوق، « دور الكناشات في الكتابة التاريخية المغربية »، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991 م، ص، 98.

5 - محمد المنوني، « الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية »، المناهل،

ما تقدمه كناشة ابن الكعاب عن صاحبها وعن موضوع تأليفها ، وتدعيمه بالمعلومات القليلة المتممة التي حصلنا عليها .

ولد محمد بن محمد بن علي بن الكعاب الشركي السجعي الحمراني ثم الفاسي في مدينة فاس عام 1274 هـ/ 1857 م. وككثير من الأطفال في زمانه، أدخل الكتاب القرآني، وبعد ذلك درس مبادئ العلوم الإسلامية، على يد عدة علماء [1].

وفي الحقيقة يصعب فصل ترجمة ابن الكعاب عن إطارها العام، وهو البعثات التعليمية خلال عهد السلطان الحسن الأول (1290-1311 هـ/ 1873-1894 م) وخاصة تلك التي تم إرسالها إلى فرنسا وبلجيكا. هذه البعثات التي طغى على تعليمها **المجال العسكري** [2]. ففي عام 1291 هـ/ 1874 م، وقع عليه الاختيار مع طلبة آخرين للدراسة بالخارج، وعمره آنذاك لا يتعدى 18 سنة [3].

استقر أفراد البعثة أولا في مدينة طنجة، وتحديدا بالمدرسة الحسنية (نسبة إلى الحسن الأول) [4] ابتداءا من آخر رجب 1291 هـ/ 1874 م لدراسة مبادئ العلوم التكوينية التي تؤهل الطلبة للدراسة في خارج أرض الوطن. والمواد التي تلقوها في هذه المدرسة هي : الحساب، والهندسة، والتنجيم، والجغرافيا، واللغة العربية، والمبادئ الدينية الأولية، إضافة إلى اللغة الأجنبية كتابة وتحدثا [5]، مما يظهر الحرص على تمكين الطلبة من تكوين يؤهلهم لمسايرة ما سيتعلمونه في المعاهد الأوربية من علوم حديثة، والاستفادة من ذلك، قصد اكتساب الخبرة العلمية **والعسكرية**، في أفق توفير أطر مغربية بديلة للأطر الأجنبية

---

تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، العدد الثاني، السنة الثانية، صفر 1395 هـ/ مارس 1975 م، ص، 196-197، 201-202. راجع أيضا محمد رزوق، « دور الكناشات في الكتابة التاريخية المغربية »، ص، 97-101.

1- أحمد معنينو، « ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297، محمد بن الكعاب الشركي »، مجلة البحث العلمي، يصدرها المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، السنة 13، العدد 25، محرم - جمادى الثانية 1396 هـ/ يناير - يونيو 1976 م، ص، 220.

2- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الأول، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1410 هـ/ 1985 م، ص، 166.

3- أحمد معنينو، « ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297، محمد بن الكعاب الشركي »، ص، 220.

4- عن دواعي إنشاء هذه المدرسة في مدينة طنجة، راجع : جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1408-1409 هـ/ 1988-1989 م، ص، 96.

5- محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص، 147.

التي كانت تمارس الوظائف الحيوية في المغرب. وهذا يدخل ضمن إطار عام، كان السلطان الحسن الأول يحاول من خلاله التخلص من البعثات الأجنبية [1]. وقد دامت مدة دراسة ابن الكعاب في مدرسة طنجة ست سنوات ونصف [2].

وفي 18 ذي الحجة 1297 هـ/ 1879 م، توجه محمد بن الكعاب إلى باريس رفقة أفراد البعثة من الطلبة لدراسة **الهندسة الصناعية والعسكرية** [3]. ويستفاد من إحدى المراسلات التي تلقاها ابن الكعاب من عبد السلام بن محمد الخليع، كاتب أخيه القائد محمد، مؤرخة في 7 رجب 1299 هـ/ 1881 م، أن تكوين أعضاء بعثة فرنسا، شمل مواد متنوعة وهي : الهندسة، وفنون الملاحة، وعلم التاريخ، والتجارة، وعلم التصوير، إلى جانب تعلم اللغة الفرنسية [4]. وتضيف وثائق أخرى مادتي الرياضيات والجغرافيا، باعتبارهما مادتين مرتبطتين **بالمجال العسكري** [5].

كان المخزن هو الذي يتكلف بنفقات السفر ومستلزماته، ومصاريف إقامة الطلبة بالديار الأجنبية. ويستفاد من إحدى مراسلات ابن الكعاب، أن الطلبة كانوا يتقاضون منحة تقدر بثلاثين مثقالا - دون تحديد زمني - لا تتضمن مصاريف الأكل والشرب [6]. فهل يعني ذلك أنها لم تكن منتظمة ؟

إن الإشارة اليتيمة لا تسمح بإعطاء صورة واضحة ومفصلة عن الجانب المالي، وانعكاسه السلبي أو الإيجابي على وضعية طلبة البعثة، وظروف دراستهم في فرنسا. لكن يبدو أن السنتين الأوليتين من الإقامة في باريس، مرت في ظروف حسنة. ذلك ما يمكن استخلاصه على الأقل من رسالة توصل بها ابن الكعاب من أخيه بتاريخ 8 ربيع الثاني 1299 هـ/ 1881 م. ونعلم من خلالها أيضا أن صاحبنا المترجم له، سبق وأن أخبر أخاه بأن السلطان الحسن الأول منح أفراد البعثة في آخر سنة 1298 هـ « **ثلاثة كساو مطروزين بالذهب زي المغرب** » [7].

---

[1] - جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 70-71.
[2] - كناش رقم : 03.
[3] - أحمد معنينو، « ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297، محمد بن الكعاب الشرگي »، ص، 220.
[4] - كناش رقم : 02.
[5] - جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 70-71.
[6] - كناش رقم : 02.
[7] - نفسه.

دامت مدة دراسة ابن الكعاب في باريس أربعة أعوام ونصف، وتحديدا إلى 22 شعبان 1301 هـ/ 1884 م، حين أتى الأمر السلطاني بشأن الانتقال إلى بلجيكا [1].

انتقل ابن الكعاب إلى بلجيكا رفقة أعضاء البعثة، حيث أقام في زنقة "سان مارتان" في مدينة "سورانغ" (N°7, rue Saint Martin, Seraing) [2]. ومن خلال رسالة بعثها ابن الكعاب إلى النائب السلطاني بتاريخ 18 يونيو 1884 من المدينة المذكورة، يتضح أن هذا الأخير كلف صاحبنا بمهمة الإشراف على أفراد البعثة. وفي هذه الرسالة معلومات مستفيضة حول مستلزمات إقامتها، والمصاريف التي كان يتطلبها تكوين الطلبة، من حيث الملبس، ورواتب الأساتذة المشرفين على تدريسهم، ومقادير المنحة الواجب تسليمها لهم [3].

ومن الإفادات المهمة التي أشار إليها ابن الكعاب في أحد كنانيشه، ذكره لأسماء المُعَلمين العشرين الذين بعثهم المخزن إلى مدينة " صيرن " (Seraing) البلجيكية في 17 يونيو 1884 موافق 24 شعبان 1301 هـ لتعلم « **صناعة الفرغ وما يليها** ». ونلاحظ أنهم كانوا ينحدرون من مدينتي فاس(10)، ومكناس (9)، والدار البيضاء (1)، تراوحت أعمارهم ما بين18 و30 سنة، أما حرفهم الأصلية فهي ثلاثة : تسعة حدادين، خمسة زنايدية، أربعة سرايرية، واحد سياف، وواحد مجامري [4].

التحق بهؤلاء العشرين في المدينة نفسها، ستة آخرون مبعوثون من قبل المخزن، بتاريخ 16 يوليوز 1884 م موافق 23 رمضان 1301 هـ، أي شهرا بعد البعثة السابقة، وكانوا جميعهم حدادين من مدينة مكناس، تراوحت أعمارهم ما بين 17 و30 سنة. وقد كان الهدف من إرسالهم إلى بلجيكا، **تعلم حركات المكينات** [5]. وأنيطت المهمة نفسها بأولئك الذين التحقوا بهم في مدينة " لييج " (Liège) البلجيكية بتاريخ يوم الثلاثاء 24 مارس 1885 م موافق 7 جمادى الثانية 1302 هـ، وكان عددهم عشرة، ستة من مكناس، واثنان من الرباط، واثنان من فاس. تراوحت أعمارهم بين 21 و45 سنة [6]. ثم مجموعة رابعة، لم يشر إلى تاريخ وصولها، ضمت 12 فردا، كلهم من مدينة

---

1 - كناش رقم : 03.
2 - نفسه.
3 - نفسه.
4 - كناش رقم : 01. وهو نفس العدد الذي ذكره رئيس البعثة العسكرية الفرنسية " فالوا Vallois " في تقريره عن أحداث ماي ويونيو من سنة 1844 م. (A.G.U Rapport N°5 du C. Vallois, Meknès, le 10 juin 1884, p. 3.). نقلا عن جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 147.
5 - كناش رقم : 01.
6 - نفسه

مكناس (سبعة زنايدية، أربعة حدادين، واحد سرايري)، توجهوا إلى منطقة " هرسطال " (Herstal) التابعة لمدينة (Liège) « **لأخذ صناعة السلاح** » [1]. وقمين بالإشارة أن ابن الكعاب كتب أسماء المجموعات الثلاثة بحروف عربية ولاتينية في الوقت نفسه [2].

والظاهر أن هذه المجموعات كانت تأتمر بأمره، وتحت إشرافه، بدليل قوله عند ذكره لأسماء المجموعة الثالثة : « **وهم عند أمرنا كذلك** » [3].

إذن، كان الهدف من مرحلة بلجيكا أخذ علوم الصناعات المفقودة في المغرب، والمطلوبة أيضا، وتحديدا **صناعة الأسلحة (فبركة القرطوس والمدافع)** [4]. لهذا تم تكوين أفراد البعثة في مصانع " كوكريل دو سورانغ " (Cockerill de Seraing) [5]. وإلى جانب التكوين في مجال الأسلحة، كان السلطان الحسن الأول يحث أفراد البعثة أن يطلبوا من مؤطريهم الإذن بتعلم صناعة مكينات السكة، غير أنهم لم يحصلوا على ذلك الإذن [6].

والظاهر، أن مرحلة التكوين في بلجيكا لم تمر كلها كما يرام، فقد عبر ابن العكاب في إحدى رسائله إلى الوزير الحاجب السيد احماد بن موسى، والمؤرخة في 12 جمادى الثانية 1304 هـ/ 1886 م عن المشاكل التي كان يعيشها أفراد البعثة المغربية، ولعل أهمها المشاكل المادية. فجماعة "كوكريل" (Cockerill) ظلت تطالب بما أنفقته على تعلم 7 مغاربة كانوا يتعلمون **صناعة الأسلحة**، بما قيمته 23200.50 فرنك وذلك إلى حدود يوم السبت 09 جمادى الثانية سنة 1304 هـ/ 5 مارس 1887 م، ويدخل في هذه القيمة ثمن صمطات الجلد، **ومكينات تلييف القرطوس والحبة** بما قيمته 2099.50 فرنك [7].

ونتيجة عدم إيفاء المخزن بما عليه من ديون، صار طلبة البعثة عرضة لاحتقار وإهانة مؤطريهم، مما خلف آثارا عميقة في نفسيتهم تكشف عن معاناتهم، عبر عنها ابن الكعاب في الرسالة المذكورة بقوله : « **حتى صرنا لا نستلذ طعاما ولا شرابا** » [8]. ولعل هذا ما دفع أفراد البعثة، بعد أن طال بهم المقام، إلى بعث رسالة إلى وزير

---

[1] - كناش رقم : 02.
[2] - كناش رقم : 01.
[3] - نفسه. وهناك رسالة في الكناش رقم : 2 تثبت فعلا أنه كان مسؤولا على أفراد البعثة المغربية، حيث نقل فيها لبركاش أحوالها، وظروف إقامتهم، وعلاقتهم بشركة كوكريل.
[4] - كناش رقم : 03.
[5] - نفسه.
[6] - نفسه.
[7] - نفسه.
[8] - نفسه.

" الأمور البرانية " السيد امحمد باركاش، طلبوا فيها منه الرجوع إلى أرض الوطن تحت ذريعة صلة الرحم. لكنهم لم يتوصلوا بإذن الرجوع، خاصة وأن الوزير المذكور قد توفي [1]. وظلوا يجددون طلب العودة إلى المغرب " لنائب الحضرة العالية بالله " السيد الحاج محمد الطريس، ليتوسط لهم عند السلطان الحسن الأول [2]. ويستفاد من مذكرات ابن الكعاب أنه عاد إلى المغرب صحبة باقي أعضاء البعثة عام 1304 هـ/ 1886 م بعد أن قضى قرابة سبع سنوات ونصف في الديار الأوربية [3].

إن بعض رسائل محمد بن الكعاب، الموجهة إلى النائب السلطاني في طنجة، تمدنا بشهادات دالة على المشاكل التي عانى منها أفراد البعثة المغربية في بلجيكا، وكذا على تخاذل الجهات المخزنية المسؤولة في القيام بواجبها تجاه أفراد هذه البعثة، وهي بالتالي تكشف عن الفرق الكبير بين نوايا السلطان الحسن الأول، وهدفه من وراء إرساله الطلبة المغاربة إلى أوربا، وبين طرق تنفيذها من قبل المسؤولين المخزنيين. ولعل ذلك شكل أحد العوامل التي كانت وراء إخفاق تجربة البعثات الإصلاحية [4]. هذا في وقت تفصح فيه مذكرات ابن الكعاب عن الرغبة التي كانت تحذو أعضاء البعثة التي كان برفقتها في تطوير معارفهم، والعودة إلى المغرب لوضع خبرتهم في صالح البلاد [5].

يهمنا من خلال تجربة البعثة المغربية إلى فرنسا وبلجيكا، أن ابن الكعاب كان حريصا على أن يمتلك المغرب الآليات التي تمكنه من صناعة القرطوس وتلفيفه محليا، لذا عمل جاهدا على حث السيد محمد بركاش وزير " الأمور البرانية " على إصدار أوامره لشراء « **مكينات السلاح** » [6]. ويبدو من خلال المهمة التي أوكلت لابن العكاب في الديار البلجيكية على رأس البعثة، أنها جعلته يهتم كثيرا بموضوع إعداد مكينة القرطوس، والإشراف عليها من الناحيتين التقنية والتجارية قبل إرسالها إلى المغرب، هذا ما يتضح من خلال الرسائل العديدة التي تبادلها مع السيد محمد بركاش طيلة سنة 1303 هـ/ 1886 م وبداية سنة 1304 هـ/ 1986-1987 م. وقد جاء في إحداها بتاريخ فاتح رجب الفرد 1303 هـ : « **قدمت عند كشوصي في شأن صناعة المكينات لتلييف الحبة والقرطوس، فذكر لي وأنه يجب رجوع العشرون قالب متاع الحبة المبعوثين إلى حضرتكم مع مكينات القرطوس ليصنع عليهم المكينة التي تصلح**

---

1 - نفسه.
2 - نفسه.
3 - نفسه.
4 - جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 108.
5 - كناش رقم : 03.
6 - نفسه.

**لتقصيص أوراق القزدير لتلييف الحبة... »** [1].

غير أن بعض المصاعب التقنية اعترضت إعداد مكينة القرطوس، ذلك ما يستفاد من رسالة بعثها ابن الكعاب إلى السيد بركاش بتاريخ 17 شوال 1303 هـ، جاء فيها : « **ليكن في كريم علم سيادتكم وأن المكينات مع سمطات الجلد لتدوير مكينة القرطوس قد وجدوا، لكن لما أردنا تجريب مكينة تقصيص القزدير لتلييفة الحبة وجدناها ليست على الظن »** [2].

ظل ابن العكاب متابعا لهذا الموضوع، حريصا على أن تكون كل المكينات المطلوبة على أحسن ما يرام، وهكذا جاء في رسالة أخرى إلى محمد بركاش في 05 ذي القعدة سنة 1303 هـ : « **ليكن في علم سيادتك، وأني عيرت سمطات الجلد لفبركة القرطوس ووجدتهم في أحسن الغاية كما تظن، وكذلك مكينة تقصيص تلييفة القرطوس، كما كنا بينا لسعادتك في شأنها، وأما مكينة تقصيص القزدير لتلييفة الحبة لم نقبلها من لشوصي لأنها ليس على الظن مثل ما نريد (...) إن أراد لشوصي أن يترك لنا المكينة بنصف الثمن نقبلها منه (...) وإلا فنتركها له ونصنع مثلها أو أفضل منها عند الغير... »** [3].

وأخيرا، أصبحت كل مكينات السلاح معدة على أحسن وجه، فقام ابن الكعاب بإخبار السيد بركاش بالموضوع في رسالة مؤرخة في 14 حجة الحرام سنة 1303 هـ مقترحا عليه تعيين الميناء الذي يمكن أن يستقبل تلك المكينات. جاء في الرسالة : « **ليكن في علم سيادتك وأن ما نحن واقفون عليه من بقية مكينات القرطوس، أعني المكينة لتقصيص التليفة (...) وسمطات الجلد لحركة فبريكة القرطوس ثم المكينة لتقصيص التليفة من القزدير للحبة، فالكل موجود ومعين ولا يخص إلا إذنك للتوجيه. وعليه جماعة كوكريل تطلب منا أن نطلب من سيادتك إلى أي مرسى من مراسي المغرب يلزم توجيه ما ذكر أعلاه... »** [4].

والظاهر، أن ابن الكعاب كان متلهفا لوصول تلك المكينات إلى المغرب في أقرب الآجال، ولما لم يرد السيد بركاش على رسالته الأخيرة بالسرعة التي كان يتوقعها، قام بمراسلته مرة أخرى في فاتح محرم 1304 هـ، مقترحا عليه توجيه ماكينات القرطوس إلى ميناء الجديدة [5]. غير أن لهفة ابن الكعاب اصطدمت هذه المرة

---

1 - نفسه.

2 - كناش رقم : 03.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

5 - نفسه.

بوفاة محمد بركاش، فوجه رسالة تعزية إلى محمد الطريس في 22 محرم سنة 1304 هـ أخبره فيها أو بالأحرى ذكره فيها بأن : « **ما نحن واقفون عليه والأغراض المولوية في هذا البلد قد تم الكل، أعني ما كان تأخر من مكينات فبركة القرطوس وسمطات الجلد لحركاته** » [1].

وأخيرا، تحققت أماني محمد بن الكعاب، فقام بمراسلة أمناء مرسى الجديدة في 29 محرم سنة 1304 هـ، أخبرهم فيها بإرسال مكينة القرطوس انطلاقا من إنجلترا، وعرفهم فيها بوزن لفات الماكينات على النحو التالي : « **لفات سمطة الجلد 496 رطلا، لفة مكينة تلييفة الحبة 340 رطلا، لفة مكينة تلييفة القرطوس 676 رطلا، وزن الجميع هو خمسة عشر قنطارا واثني عشر رطلا** » [2].

هكذا يبدو أن القضية التي شغلت بال ابن الكعاب أكثر من غيرها، هي قضية تصدير مكينات القرطوس ومستلزماتها نحو المغرب من بداية تصنيعها إلى حين وصولها إلى ميناء الجديدة.

لقد استطاع ابن الكعاب خلال مدة إقامته في أوربا، خلق صداقات عديدة مع فرنسيين وبلجيكين، وذلك ما يتضح من صور احتفظ بها لهؤلاء دون أن تحمل بعضها أسماءهم. وقد كتب له (Le chevalier Kraft de Sanba) على ظهر صورته أهداها لابن الكعاب :

« A Monsieur El Kâb, officier supérieur de sa majesté l'empereur du Maroc, » souvenir d'amitié [3].

اغتنم ابن الكعاب مدة دراسته في فرنسا وبلجيكا، فزار عدة عواصم أوربية، ومنها "موسكو" عاصمة روسيا. وكان سنه أثناء تلك الزيارة 27 سنة. نزل حينها بالفندق الكبير لموسكو (Grand Hôtel de Moscou) كما هو مثبت من خلال أوراق احتفظ بها من الفندق المذكور. وإذا كنا لا نعرف تفاصيل زيارته لروسيا وباقي الدول الأوربية التي زارها، ما دامت رحلته التي ألفها لم يكشف عنها النقاب بعد، فإن عبد الهادي التازي أخبر حفيده الحاج محمد بن صالح بن محمد بن الكعاب بأنه وجد بعض آثاره في روسيا [4].

---

[1] - كناش رقم : 03.

[2] - نفسه.

[3] - الصورة ضمن الوثائق الخاصة الموجودة عند حفيد ابن الكعاب.

[4] - تم إخباري بهذا الأمر في لقاء جمعني مع الحاج بلكعاب يوم الأربعاء 05/ 02/ 2003 في منزله بالمدينة الجديدة على الساعة 9.30 صباحا.

بعد عودة ابن الكعاب إلى المغرب سنة 1304 هـ/ 1886 م، وكأغلبية أفراد بعثته، **وظف في قطاع الجيش كموظف مخزني في فن الهندسة بدار السلاح في فاس** [1] التي أسسها السلطان الحسن الأول، **وتحديدا في بعض الوظائف التقنية، ذلك ما نستشفه من أحد تقاييده المتعلقة بمتطلبات إصلاح مكينة القرطوس** [2].

لم يقتصر عمل ابن الكعاب في دار السلاح على الجانب التقني، ولكنه اختير إلى جانب ثلاثة آخرين كلفهم المخزن بمهمة الترجمة مقابل أجر هزيل، بل بدون مقابل أحيانا. ولم تهتم اتفاقيتا 1888 م/ 1306 هـ و1895 م/ 1313 هـ بهؤلاء المترجمين وحقوقهم، ولم يتم ذلك إلا بموجب اتفاقية 1910 م/ 1329 هـ [3]، في وقت كان فيه ابن الكعاب قد توفي.

وارتباطا بدراسته من جهة، وبعمله في دار السلاح من جهة أخرى، واعتبارا لتمكنه وتضلعه فيما تلقاه، استطاع إنجاز عدة تصاميم هندسية **خاصة بالآلات الصناعية المرتبطة بالسلاح الثقيل (المدافع) والخفيف (بما في ذلك القرطاس).** ولازالت بعض هذه التصاميم، التي تعتبر مرآة لطموحه في الانخراط في « نهضة المغرب الصناعية »، محتفظا بها عند حفيده الحاج محمد بن صالح بن محمد بن الكعاب. والملفت للانتباه أن ابن الكعاب أنجز هذه التصاميم باللغة العربية، رغم أن دراسته تمت باللغة الفرنسية. ويبدو أن ذلك تم في محاولة لتقريب فهمها من جهاز المخزن، ولتبنيها كمشاريع قابلة للإنجاز، وفي الوقت نفسه ترسخ ودعم مكانته لدى هذا الجهاز.

---

[1] - انظر تعريفا بهذه الدار وتاريخ تأسيسها وعمالها عند مولاي عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، الجزء الثاني، مطابع إيديال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1410 هـ/ 1990 م، ص، 495-499. محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج1، ص، 99. وقد بقي العمل مستمرا بها إلى حدود سنة 1321 هـ وفي كتاب " الاستبصار " للطاهر الأودي ما يفيد أن " دار السلاح " كان العمل جاريا فيها إلى أول العهد الحفيظي. نفسه، ص، 100.

وقد أشار ابن زيدان إلى عمل ابن الكعاب في هذه الدار وأنه كان من بين كبرائها. إتحاف أعلام الناس، ج2، ص، 498.

[2] - كناش رقم : 01. تجدون نسخة منها كملحق لهذا البحث. وحول استخدام الكعاب في معمل السلاح بفاس انظر :

EDMOND Picard, EL Mogreb al aksa, une mission belge au Maroc, Bruxelles, 1889, p. 370.

نقلا عن جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 162.

[3] - Bahija SIMOU, Les reformes militaires au Maroc de 1844 à 1912, op.cit, p. 257.

وبالفعل، استطاع ابن الكعاب أن يحول رأسماله المعرفي إلى رأسمالين، أحدهما رمزي (الجاه) والآخر مادي، مُنحا له من قبل المخزن. اتضح الرأسمال الرمزي، الذي يعبر عن حظوته المتميزة لدى المخزن، من خلال الرسائل التي كان يتلقاها ابن الكعاب من بعض معارفه وأقاربه، كانوا يطلبون فيها وساطته في بعض القضايا التي كان المخزن طرفا فيها [1]. وفي كل عيد كانت تأتيه فرقة عسكرية إلى منزله تعزف له الموسيقى بأمر من السلطان مولاي عبد العزيز، ثم مولاي عبد الحفيظ من بعده [2]. أما الرأسمال المادي فقد ظهر على سبيل المثال في ربع الدار الكائنة بالرميلة في فاس التي أقطعها له السلطان عبد العزيز بن الحسن (1311 -1325 هـ/ 1894-1907 م) في 27 ربيع الأول 1313 هـ/ 1895 م [3]. وتشهد العديد من العقود العدلية المحتفظ بها إلى الآن، أن صاحبنا كان من الأعيان بفضل ما كان يملكه من أراضي وعبيد [4]. منهما عبدين خاصين بولده، هما : فاتح وفرجي، كانا يلازمانه، ويصطحبانه للمسيد ولقضاء أي من أغراضه [5].

وفي عام 1315 هـ/ 1897 م، استدعي ابن الكعاب إلى مراكش، حيث عينه المخزن لشغل منصب آخر [6]. وتجدر الإشارة إلى أن عمل ابن الكعاب لم يقتصر على المجال العسكري، بل شمل أيضا المجال الدبلوماسي. فقد شارك في السفارة التي توجهت إلى باريس سنة 1319 هـ/ 1901 م بصفته ترجمانا [7]. غير أنه لم يستطع أن يكمل مشواره الوظيفي، بعد أن أصيب بمرض الشلل [8].

أما فيما يخص الإنتاج الفكري لابن الكعاب، فيظهر من خلال الآثار المكتوبة التي خلفها، منها : رحلته المخطوطة، التي ذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب

---

[1] - كناش رقم : 02.

[2] - رواية شفوية لحفيد المترجم له.

[3] - أصل الظهير السلطاني لا زال عند حفيد المترجم له وقد اطلعت عليه، وستجدون نسخة منه في الملحق التابع لهذا المقال.

[4] - لا زال حفيد المترجم له يحتفظ ببعض هذه العقود العدلية.

[5] - رواية شفوية لحفيد المترجم له.

[6] - Bahija SIMOU, Les reformes militaires au Maroc de 1844 à 1912, op.cit, p. 259.

لم تشر الباحثة إلى المصدر الذي استقت منه استدعاء المخزن لابن الكعاب وتكليفه بمهمة في مراكش، كما لم تفصح عن طبيعة هذه المهمة.

[7] - Bulletin de l'Afrique Française, Renseignements coloniaux, N°7, Année 1901, p. 237.

نقلا عن جمال حيمر، « البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن »، ص، 164.

[8] - رواية شفوية لحفيد المترجم له.

الأقصى، أنها كانت في حوزة محمد بن الحسن الوزاني [1]، والتي لو كتب لها أن تخرج من غيابات الجب إلى النور، لعلمنا من خلالها الكثير من الجوانب المعتمة في حياة المترجم له، ومن خلالها جوانب مهمة من التاريخ العسكري المغربي. وهناك أيضا مقيداته، ومنها كناشته التي ضمنها نظائر من الرسائل التي كان يبعث بها إلى الموظفين المغاربة السامين، كمحمد باركًاش، واحماد بن موسى، ومحمد الطوريس، إلى جانب الرسائل التي كان يبعثها إلى أصدقائه. وتنقسم هذه المقيدات إلى قسم مكتوب باللغة العربية وآخر مكتوب باللغة الفرنسية، مما ينهض دليلا على تمكنه من هذه اللغة الأخيرة. ولا يمكن أن تغيب عن بال الباحث في إنتاج ابن الكعاب الفكري، تلك التصاميم الهندسية التي سبقت الإشارة إليها، والتي تدل على تمكنه وخبرته في هذا المجال. هذا إلى جانب علاقته ببعض علماء فاس، حيث كان يستضيف باستمرار العديد منهم في منزله لعقد جلسات علمية [2].

ومن خلال التكوين الذي حصل عليه ابن الكعاب، وكذا من خلال إنتاجه الفكري، يمكن تصنيفه ضمن الفئة التي كونت في « النخبة المثقفة » في مغرب القرن التاسع عشر الميلادي، هذه النخبة التي كان طرف مهم منها قلقا على الوضعية التي يعيشها المغرب، وتشهد بعض مراسلاته التي بعث بها إلى أخيه القائد محمد، لما كان مقيما في أوربا، أنه كان دائم السؤال على أحوال « **العسكر والطبجية** » [3]. كما تشهد هذه المراسلات على وعيه بالمطامع الأجنبية التي كانت تهدد المغرب، وحرصه على تتبع أخبار هذه المطامع سواء، في الجرائد الصادرة في فرنسا أو بلجيكا، وحتى تلك الصادرة في طنجة. ومن تلك الجرائد (Réveil du Maroc) التي طلب في رسالة لأحد أصدقائه الذي كان مقيما في طنجة، أن يبعث له بأحد أعدادها [4]. وقد ضم الكناش الثاني مقتطفات من بعض الجرائد، يحوي بعضها معلومات حول التاريخ العسكري، ولم يكتف بالمقتطفات، بل كان يخط بيده بعض ما جاء فيها : مثال ذلك ما نقله من جريدة (La gazette de Bruxelles) الصادرة يوم الاثنين 29 ماي 1886 م في موضوع : " الحرب في المغرب " (La guerre au Maroc). كما ضم الكناش أيضا رسائل إلى السيد محمد بركًاش، يظهر من بعضها أنه كان متابعا لما يصدر في الصحافة الفرنسية عن أحوال المغرب، وعلاقته بالقوى الاستعمارية، ومنها إسبانيا،

---

[1] - عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الجزء الثاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1965 م، ص، 352.

[2] - رواية شفوية لحفيد المترجم له.

[3] - كناش رقم : 02.

[4] - نفسه.

وكأنه كان مكلفا بهذه المهمة [1].

لقد كان ابن الكعاب يتوفر بداره في فاس على خزانة كبيرة، ومختبر في الطابق الثاني من منزله. إلا أن خزانته تعرضت للاندثار بعد وفاته، لأن ابنته فاطمة ـ وهي التي لم يكتب لها أن تدرس يوما ما ـ وكذا زوجها، لم يقدرا ما كانت تحتويه من ذخائر. أما ابنه صالح فكان عند وفاة والده لا يزال طفلا لم يع بدوره قيمة الخزانة وما فيها [2].

ظل ابن الكعاب يعاني من مرض الشلل الذي لازمه نحو سنتين، إلى أن وافاه الأجل في مسقط رأسه، بتاريخ 17 رجب 1324 هـ/ 1907 م، حيث دام عزاؤه حوالي ستة أشهر [3]. ودفن بمقبرة زاوية سيدي عبد الدايم بحي عين سليطن (أزليتن)، دائرة اللمطيين في فاس القديم [4]. وقبره يحتاج إلى التفاتة من اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، تكريما للرجل بما أسداه من خدمات للمغرب عامة وللميدان العسكري على وجه التخصيص.

هكذا يظهر أن كنانيش ابن العكاب غنية بالمعلومات حول التاريخ العسكري المغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وما أخرجته من بطونها لا يعد إلا جزءا من كل، فهي لا زالت بحاجة إلى دراسة متأنية، لاستكناه محتوياتها. وبهذا يمكن القول، إن الكنانيش منجم خصب لكتابة التاريخ، والكشف عن الجوانب الخاصة في حياة الأفراد، ورؤيتهم لما يحيط بهم من أحداث، ومن خلالها تصبح الترجمة، ورغم ما يظهر عليها من طابع تقليدي، أحد الطرق الأساسية التي يمكن من خلالها إعادة كتابة التاريخ العسكري المغربي، والتي ما زالت في حاجة إلى عناية أكبر.

أما فيما يخص حياة ابن الكعاب الشخصية فقد تزوج بعد عودته إلى المغرب بالسيدة هنية بنت محمد بن العربي الحجوي بتاريخ 22 صفر 1307 هـ، ومنحها صداقا قيمته « **60 ريالا دور** ». وشرط والد العروس في عقد النكاح على الزوج عدم السكنى بابنته في البادية، فقبل ذلك [5].

---

1 - نفسه.

2 - رواية شفوية لحفيد المترجم له.

3 - نفسها.

4 - أحمد معنينو، « ترجمة مختصرة لتلميذ من بعثة الحسن الأول 1297، »، ص،221. بالإضافة إلى رواية شفوية لحفيد المترجم له.

5 - عقد الزواج لا زال يحتفظ به حفيد المترجم له.

خلف ابن الكعاب في فترة زواجه التي دامت قرابة 16 سنة (من 1307 إلى 1324 هـ) طفلين، أنثى وذكر. ولدت فاطمة بفاس في 5 ربيع الأول 1311 هـ/ 4 شتنبر 1893 م. وولد صالح يوم الجمعة 27 ربيع الأول 1316 هـ/ 1898 م [1].

---

[1] - رسالة من حفيد المترجم له الحاج محمد بن الكعاب إلى الحاج أحمد معنينو، وهي غير مؤرخة. ولكن اعتبارا للمراسلات التي تمت بين الطرفين يمكن التخمين بقوة أنها كانت سنة 1999 م.

الملحق رقم : 01/ صورة محمد بن محمد بن علي بن الكعاب الشركي السجعي الحمراني ثم الفاسي



**الملحق رقم : 02/ تقييدة واردة في الكناش رقم : 1 حول « ما يصلح لمكينة القرطوس » والظاهر من آخرها أنها مبتورة.**

**الملحق رقم : 03/ ظهير عزيزي أقطع بموجبه ابن الكعاب ربع الدار الكائنة بالرميلة في فاس.**